الكتاب التاسع والعشرون
آراء وأحاديث في الوطنية والقومية

المؤلف «أبو خلدون» ساطع الحصري

الطبعة الثانية ١٩٥٤

تحليل وعرض أ. د. زكريا سليمان بيومي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

السيرة الذاتية للمؤلف:

المؤلف هو ساطع الحصري الذي أطلق عليه أبو خلدون، وهو مفكر سوري من أبرز دعاة القومية العربية. اسمه ساطع بن محمد هلال الحصري، ولد في صنعاء في شعبان سنة ١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م لأب سوري كان يعمل في اليمن. تعلم في المدارس التركية وتخرج فيها وتقلد وظائف تناسبها كان منها توليه منصب مدير دار المعلمين في إستانبول، ثم عين محافظًا لبعض ولايات البلقان من قبل جماعة الاتحاد والترقي التي وصلت إلى حكم الدولة العثمانية وكان معبرًا عن تيارهم الداعي إلى الطورانية أو القومية التركية، ونشر العديد من المقالات في مجلة «تورك أو جاني»، ثم تحول إلى الدعوة إلى القومية العربية وشغل مناصب في عهد السلطان عبد الحميد بعد أن تقرّب منه وابتعد عن رجالات الاتحاد والترقي، ثم رحل إلى دمشق سنة١٩١٩م. تقلد ساطع منصب وزير التعليم في دمشق لفترة وجيزة بدا خلالها مهاجمته لعلماء الدين حيث كان علمانيًا لا يرى للدين موقعًا في مناهج التعليم وهو أمر أثار عليه بعض المعلمين في بغداد حين ذهب إليها في صحبة الملك فيصل بن الحسين الذي عينه في مناصب عدة ومكنه من التعليم. ومن موقعه في التعليم دعا إلى فكرة القومية العربية وكبح جماح كافة الذين عارضوه فيها أو حول أفكاره العلمانية الأخرى حتى قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١م حيث نفاه الإنجليز

إلى بلدته حلب. ولكنه هرب منها إلى دمشق ١٩٤٤م وعمل كمستشار تربوي مركزا على الفكر القومي، وظل هكذا حتى دعته الحكومة العسكرية في مصر بعد١٩٥٢م ليدعم توجهها القومي من خلال توليه إدارة معهد أقامته لتولى دعم الفكر القومي العربي وهو معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٥٣م.

والملاحظ أن الحصري قد تأثر بالبيئة الحلبية التي سادتها دعاوى القومية ومعارضة فكرة الجامعة الإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر التي تخرج منها نجيب عازوري ورزق الله حسون وغيرهم. كما أنه كان بتوجهه تابعًا لدعاة القومية من الساسة الذين تبنوها ففي تركيا عمل مع رجال الاتحاد والترقي، ثم مع فيصل بن الحسين في دمشق وتنقل معه إلى العراق، ثم مع العسكريين من دعاة القومية في مصر.

وتنحصر كل كتاباته في الدفاع عن الفكرة القومية العربية والترويج لها، فكتب كتابًا بعنوان «حول الفكرة العربية» ، وآخر بعنوان «آراء وأحاديث القومية العربية»، ثم «ودفاع عن العروبة»، والعروبة أولًا، إلى جانب الكتاب الذي نعرض له وهو «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية» وهو عبارة عن محاضرات ومقالات ألقاها في بغداد ثم جمعها لتكون هذا الكتاب سنة ١٩٤٤م، وطبع على نفقة السيد محمد ناجى الخضري وفي زمن حكم دعاة القومية الذين التفوا حول فيصل بن الحسين.

والكتاب يقع في ١٤٥ صفحة من القطع المتوسط، ومحتوياته ليست في شكل فصول ولكن في شكل موضوعات كلها حول القومية أو مقالات للرد على دعاة الإقليمية كطه حسين وتوفيق الحكيم، والإسلامية كالشيخ المراغي.

استهل الكاتب موضوعاته بمحاولة لتعريف الوطن بأنه قطعة أرض يعيش عليها المواطن وأن الوطنية شعور بارتباط باطني حولها. والقومية هي الأمة أي مجموعة بشرية يرتبط الإنسان بها، ولا يجد خلافًا كبيرًا بين الوطنية والقومية لأن

الوطنية هو حسب المواطنين الذين يعيشون في الوطن وأن القومية وحب الأمة يتضمن حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة، ولهذا يتقارب مفهوم الوطنية والقومية تقاربًا كبيرًا.

والرغبة في الإحاطة بمفهوم كل منهما يفرض ملاحظة علاقة كل منهما بمفهوم الدولة باعتبارها هيئة سياسية يعيش عليها البشر، أي أن مفهومها يرتبط بمفهوم الوطن والأمة وإن اختلف بين أمة وأمة.

وذكر أن الأمة التي تؤلف دولة واحدة مستقلة ولها علم وحكومة تنطبق فيها الوطنية على القومية تماما. أما إذا كانت الأمة تؤلف دولًا عديدة كل واحدة منها مستقلة بذاتها فيكون لكل وطنية مستقلة، والقومية تتجاوز حدود الدولة وتسعى إلى ربطها جميعا برباط معنوي، ولا يبدو هناك انسجام مع الوطنيات وتنزع إلى تكوين وطنية عامة جديدة تسمو فوق الوطنيات الخاصة.

والقومية هنا تولد فكرة وطن معنوي مثالي أوسع وأعظم وأعلى من الأوطان الراهنة وتصبوا النفوس إلى تحقيق هذا الوطن المرقوب وتسعى إخراجه من عالم الفكر إلى عالم الحقيقة. وهنا تصطدم القومية بالوطنية حيث تعلو مصلحة الأمة على مصلحة الوطن.

أما إذا كانت الأمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية عنها فالقومية تعارض ذلك وتولد في نفوس المواطنين نزوعًا إلى الاستقلال عن الدولة المذكورة والانفصال عن أمة الدولة الحاكمة ويكونون دولة خاصة بهم، وهنا يحدث صدام بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة والقومية.

وقد تكون الأمة مجزأة بين عدة دول أجنبية عنها، وتفرض الدول الحاكمة على جزء من الأمة وطنية خاصة، وهنا تعارض روح الأمة هذا التجزئ وتدعو لمقاومة الدول الحاكمة والاتحاد فيما بينهما لتكوين دولة قوية قومية جديدة.

ووصل إلى القول بأن القومية أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول، وأعطى أمثلة على ذلك من التاريخ الأوربي وغيره.

واستطرد في سرد الارتباط المعنوي الذي يربط الإنسان ووطنه وأهلة ويكون تعلقه بهم ذا جذور عميقة لحد الشكل المرضى، وأن حب الأهل هو حب الأمة، وهى في مجموعها عوامل فكرية ومعنوية أكثر منها حسية ومادية. وبالتالي يقوم حب الأمة على مقومات منها الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ والاشتراك في اللغة والتاريخ والتشابه في العواطف والعوائد والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل.

وانتقل المؤلف إلى تناول موضوع «عوامل القومية»، وبدأه بقوله أن ظاهرة القومية قد برزت في القرن التاسع عشر بعد أن أفاقت الأمم من سباتها وأخذت تسعى إلى الاستقلال من حكم السلطنات وتكونت قوميات عديدة تنازلت فيما بينهما وظهرت بها مشكلات الأقليات وغير ذلك.

وردًا على تساؤل عن عناصر تكون الأمم وتميزها عن بعضها أجاب بأنه لا توجد إجابة واحدة لاختلاف ذلك وفق المنظور الفكري لمن يتعرض للإجابة.

وطرح هو تساؤل عن عناصر تكوين القومية وتأليف الأمم بأنها تتعلق في البداية بوحدة الأصل والمنشأ، فيظن الناس أن كل أمة تنحدر من أصل واحد وأن أفرادها بمثابة الأشقاء من صلب أم وأب واحد، وهو ما يبدو في تكرارهم لمصطلحات مثل أجدادنا وآبائنا وإخواتنا. لكن هذا الزعم غير صحيح لأنه لا توجد جماعة بشرية ترتبط بأب وأم واحد أو خالصة الدم، وأن الأمم تكونت من تداخل عشرات الأعراق والأجناس في مختلف أدوار التاريخ وبالتالي فوحدة الدم والأصل من الأوهام التي استولت على العقول ولا يسندها دليل. وضرب مثلًا بالفرنسيين مؤكدًا أنهم ينحدرون من أكثر من ستين عرقًا أو جنسًا وأن رباطهم هو

رباط معنوي لا مادي. وشبه الرباط بالنهر المتعدد المصادر في المياه وأنها في النهاية تجرى في مجرى واحد فالإنجليزي المثقف لا يرتبط كثيرًا بشكسبير من حيث الأصل والنسب وإنما يفاخر به باعتباره من أجداده أكثر من أجداده الحقيقيين.

وخلص إلى أن العرب لا يستطيع أحدهم أن يقطع بصلة قربى من سعد بن أبى وقاص أو ابن الهيثم أو أبو العلاء وإنما يعتبرهم من أجداده المعنويين. وبالتالي فالمهم في القرابة ليست صلة دم بل هو الاعتقاد فيها والنشوء عليها، والقرابة هنا قرابة معنوية أكثر منها مادية.

أما عن كيفية تولد هذه القرابة فهي في اللغة والتاريخ، فاللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد بغيره لأنها واسطة التفاهم بين الأفراد وآلة التفكير. ولأن اللغة تختلف بين قوم وقوم فمن الطبيعي أن نجد الأفراد الذين يشتركون في اللغة يتقاربون أكثر من غيرهم ويؤلفون أمة متميزة، والأمم يتميز بعضها على بعض بلغتها فحياة الأمم تقوم على اللغات، فاللغة هي محور القومية وعمودها الفقري.

أما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، فتشعر الأمة بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص. وحينما تستولي أمة على أخرى تتعمد إهمال تاريخها، وأن حركة اليقظة للشعوب بعد التحرر هو استعادة هذا التاريخ، ولهذا فإن اللغة والتاريخ تمثلان العوامل المهمة في الأمم.

وهناك عوامل أخرى ومنها الدين الذي يولّد نوعا من الوحدة في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير في نفوسهم بعض العواطف، والدين هنا يعتبر من أهم الروابط الاجتماعية ويؤثر في السياسة والتاريخ. والدين لا يجرى على وتيرة واحدة في تأثيره على القوميات بل هناك دين قومي ودين عالمي والدين الذي يختص بقوم بعينهم يؤثر في حياتها السياسية ولا ينفصل عنها كاللغة والتاريخ كالديانة الإسرائيلية والديانات الوثنية السابقة.

أما الديانات التي تدعو العالم كله فتضيق بالقوميات كالديانة المسيحية والديانة الإسلامية. والتاريخ يشير إلى هذه الديانات لم تحقق نجاحًا طويلًا في دمج القوميات كالمسيحية والإسلام. فهناك فارق بين النظرية والتطبيق حيث لم تستطع هذه الديانات أن توحد القوميات وهى في أشد سلطتها وسيطرتها.

والديانات نفسها تتفرق إلى مذاهب تجد من خلالها القوميات منفذًا للمحافظة على كيانها، والديانات هنا تعتمد على اللغات في كتابها المقدس وعباداتها ودور العبادة. فللدين علاقة قوية باللغة يسهم في صنع تطور الأمم التاريخي من خلالها.

ثم هناك العامل الآخر وهو الاتصال الجغرافي وهو ضروري لضمان وحدة الأمة حتى لو كانت موحدة في اللغة والتاريخ. إلى جانب عامل أخر وهو رغبة الناس في الاتحاد والتلاقي.

وعلق في نهاية هذه المقلة على تأثير الدين في تكوين القوميات ضاربًا المثل بالعلاقة بين المسيحيين والمسلمين في العالم العربي وأن ذلك تأثر بالحروب الصليبية، وذكر أن هذه الحروب جاءت قبل ظهور العامل القومي، وأن وحدة اللغة جعلت العالم العربي قومية واحدة.

وبين الوطنية والأممية، أي القومية، ألقى محاضرة ذكر فيها بداية أن الوطنية من أقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة في النفوس البشرية. وخصوم الوطنية وأعداؤها أصحاب الميول والنزعات الفكرية التي تعاديها وأولها الأنانية وحب الذات في حين تستوجب الوطنية إيثار الوطن على الذات، وإلى جانب ذلك النزعات الفلسفية التي تعتبر الوطنية من النزعات البالية، وأن البعض في الغرب يفضلون عليها العالمية أي حب العالم على حساب حب الوطن. وقال أن الوقت سيحين للعالمية وتصبح فيه الإنسانية بمثابة القومية المشتركة بين جميع أنواع البشر وستزول النزعة الوطنية.

وانتقد المؤلف هذه الفكرة وقال إنها تدعو الإنسان إلى الاستكانة والسلبية، والوطنية نزعة فعلية وواقعية تدعو الإنسان للقيام بأعمال سريعة وبالتالي فإن الاتجاه إلى العالمية على حساب الوطنية هو تغليب للاستكانة على الحركة السريعة. وضرب مثلًا بنزعة ألمانيا نحو العالمية ثم هزيمتها في الحرب، وأشار إلى أن الأجدر هو التعاون بين الأمم داخل نطاق الوطنية والقومية، فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها وتحترم الأمم الأخرى، كما ذكر أن الوطنية لم تكد تخلص من ألمانيا حتى واجهت نزعة معادية أخرى تمثلت في الأممية الشيوعية التي دعت «يا عمال العالم اتحدوا» لمحاربة الرأسمالية. وقال إن هذا الصراع قد تطلب ثورة أو حربًا يعلوا فوق النزعة الوطنية.

وذكر أن الوطنية هي وسيلة من وسائل حكم الرأسمالية وأن الذين انخدعوا بها هم الصعاليك فقط. كما أن الأممية الشيوعية لا تنبذ الوطنية كلية ولكنها طالبت عمال العالم بالثورة وتخطى حدود القوميات والوطنيات. فقد جعلت الصراع بين العامل أيًا كان موطنه ضد الرأسمالي أيًا كان موطنه فهو صراع داخل الأوطان. ومن هنا تفكك الأوطان وتحلل الروابط الوطنية الحالية، وتحل علاقة الطبقات بدلًا من علاقة الأوطان حتى تنتصر الشيوعية وتسيد العمال. وقال إن الوطنية ظلت تحارب هذا العدو أو العائق الأممي الشيوعي حتى حققت انتصارًا في بعض البلدان حتى في روسيا السوفيتية. كما قال أن الدعوة للاشتراكية أو الشيوعية لا تلق منه معارضة إنما الذي يعارضه هو عدم المزج بين الفكرة والدعوة الأممية، وعلى ذلك ينبغي تحاشي الدعوة للأممية في البلاد العربية بل ينبغي أن يظل الوطن فوق كل شيء وقبل كل شيء.

وتحت عنوان «بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية» طرح العديد من الأسئلة التي عرضت علية حول تفضيل الوحدة الإسلامية على الوحدة العربية. وبدأ بالرد بتساؤل «هل الوحدة الإسلامية من الآمال المعقولة التي يمكن تحقيقها بشكل أسهل من الوحدة العربية؟، وهل هناك تنافس بين الوحدتين؟.

وأجاب بأن الوحدة بين العرب وحدة سياسية تجمعها وحدة اللغة في حين أن الوحدة بين المسلمين تفتقد إلى ذلك، ثم عدد الدول الإسلامية في الشرق والغرب وقال أن العالم العربي هو قلب هذه الأمة، وأنه يستحيل قيام وحدة إسلامية قبل الوحدة العربية.

وذكر كذلك أن التشبه بين الوحدة الإسلامية والماسونية والاشتراكية ليس في موضعه فكل من هذه الأفكار لم تشكل وحدة سياسية، كما أن الشيوعية كانت عبارة عن نمو لروسيا القيصرية. وانتقل إلى القول بأن الأديان العالمية لم تحقق وحدة بين شعوب مختلفة في اللغات إلا في العصور الوسطى ولمدد محدودة وقصيرة فالمسيحية لم تستطع أن تجمع الكاثوليك والأرثوذكس في وحدة سياسية، كما أن الوحدة في العالم الإسلامي لم تقو على الصمود أمام تقلبات الأحداث مدة طويلة، والخلافة العباسية لم تستطع المحافظة على وحدة المسلمين حتى وهى في أوج قوتها وأصبحت سلطتها في بعض القطار معنوية، وأشار إلى أن الدين الإسلامي انتشر على يد التجار والمتصوفة بعد أن ضعفت قوته السياسية، وأن الوحدة السياسية بين مسلمي العالم لم تتحقق في وقت من الأوقات.

ووصف المؤلف تأييد الإنجليز للوحدة العربية بأنهم عقلانيون وأنه لا ينبغي أن نصدق بأن دعم فكرة القومية العربية دسيسة أجنبية، وقال إن وحدة العرب مسألة طبيعة لم يوجدها موجد بل اعتمدت على وحدة اللغة وتاريخ الأمة والاتصال الجغرافي، وأن الإنجليز لم يكونوا هم الذين أوجدوا الوحدة العربية إلا إذا تصورنا أنهم الذين أوجدوا اللغة العربية وأوجدوا تاريخ الأمة العربية وكونوا جغرافيتها.

وجاء بعد ذلك خطبة ألقاها على الكشافة العرب بعنوان «بين الماضي والمستقبل» تناول فيها الصلة الوثيقة بين الماضي والحاضر وأن الماضي يسهم في صنع الحاضر والمستقبل وخاصة إذا حافظت الأمم على لغاتها التي يحافظون من خلالها

علي التاريخ، وذكر أن الاستعمار يركز علي إبعاد الأمة عن تاريخها وأنه كلما استطاع ذلك كلما سيطر على هذه الأمم.

ثم تحدث عن القوى المعنوية التي يمكن استقاؤها من التاريخ ضاربًا المثل بدور خالد بن الوليد كمحارب، ثم بأجدادنا في الطب، فذكر أننا ندرس ذلك كي نستلهم القوى المعنوية وليس اقتفاء نفس الأسلوب. وخصص جانبًا من الكتاب بعنوان «مصر العروبة» وجه عبره كتابًا مفتوحًا إلى الدكتور طه حسين. وبدأ بمناقشة قضية عروبة مصر وميل أبنائها إلى الفرعونية فذكر أن الدعوة للعربية لا تتطلب التنازل عن الثقافة الإقليمية، وقال دفاعًا عن عروبة مصر أن مصر تباعدت عن ديانة الفراعنة دون أن تخرب أبا الهول، وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تهدم الأهرام، والاهتمام بالآثار لم يولد رغبة في العودة إلى ديانة الفراعنة أو لغتهم فهل هدم الأهرام ضروري لتحقيق الوحدة العربية؟

وبعد أن ناقش قضية تجديد العقل العربي والتوجه الثقافي نحو أوربا انتقل إلى سرد الظروف التاريخية التي دعت المصريين للابتعاد عن فكرة الوحدة العربية والتي كان من أهمها الاهتمام بقضية الخلافة الإسلامية، ثم فهم التيار الليبرالي المسيطر فيها على أن الاتجاه للعرب هو اتجاه نحو البداوة.

وقال إن اهتمام بعض مفكري مصر بالرابطة الشرقية هو اتجاه ضمني تجاه الوحدة العربية، وتناول قضية العلم وكيف أنه يشكل تنمية للشعور نحو الوطن ونحو القومية وأنه ضروري لنمو هذا التيار.

وحول هذا البعد وجه المؤلف رسالة إلى الأستاذ توفيق الحكيم حول التضاد بين العلم والوطنية بأن هذا منطق غير صحيح فهل من يحب الوطن ويحب العلم يكون قد جمع بين الضدين. وناقش الحكيم في منظوره من أن الوطن هو الأنانية وأن العلم هو البصر المنزه لحقيقة الأشياء. وقال إن الوطنية قوة اجتماعية حقيقية فعالة

ليس إلى إنكارها من سبيل وتدخل في حقائق الأشياء.

وانتقل المؤلف إلى الرد على الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر عند ما نشر أنه لا رأى له في الوحدة العربية ولا يشتغل بها وليس من أنصارها ولا من أعدائها. ورد بالقول بأن الذي يقول قولا مثل هذا يكون بعيدًا عن العرب والعربية فما بالكم لو كان شيخ الأزهر الذي حافظ ومازال على لغة العرب، ثم أبدى تعجبه من الأسباب التي ساقها الشيخ المراغي لتبرير رأيه والتي ذكر فيها أن الدين الإسلامي لم يذهب إلى العصبية الجنسية ولم يفرق بين العربي وغير العربي وجعل الأمة الإسلامية وحدة لا فرق بين أجناسها، ورد على هذه المسألة بسؤال عن أن رفض الإسلام للعصبية الجنسية هل يكون بالانزواء الإقليمي؟ وهل ينبغي التفريق بين المصري والشامي والعراقي؟ وهل لم يجعل الدين الأمة العربية لا فرق بين أبنائها كجزء من الأمة الإسلامية؟

إن مقتضيات الدين التي تدعو علماء المسلمين للاشتغال بالوحدة الإسلامية تدعوهم كذلك لتوحيد الأمة العربية، والسعي لتوحيد شعوب إسلامية تتكلم بلغات عدة يسبقه الدعوة للوحدة بين المتحدثين بلغة واحدة وخاصة أنها لغة القرآن.

والكتاب في عمومه موضوعات متفرقة تشكل قضية القومية العربية فيه المحور الرئيسي حيث تعرض لعلاقتها بالوطنية كفكرة ثم بالوحدة الإسلامية، وفي الوقت الذي لم يبد فيه موقفه الرافض للوحدة الإسلامية إلا أنه استبعد حدوثها لعدم توافق ذلك مع العقل وذلك لارتكانه على وحدة اللغة ووحدة التاريخ كمقومات أساسية لقيام فكرة الوحدة.

كما أنه قد ركز في دعوته لتحقيق الوحدة العربية على مفهوم الوحدة السياسية دون التطرق إلى وسائل الوحدة المتعددة مثل الوحدة الاقتصادية وإمكانية حدوث التعاون بين العرب أو المسلمين أو السعي لتحقيق وحدة في نظم التعليم

أو التوجهات الثقافية.

ومن الواضح أنه في تركيزه على مفهوم الوحدة السياسية بين العرب كان متأثرا بوجود الاستعمار في العالم العربي وأن هذا الإطار الوحدوي بين العرب يشكل جبهة للوقوف المشترك أمام الوجود الاستعماري. كما أنه تأثر إلى حد بعيد بتوجهات فيصل بن الحسين والعائلة الهاشمية في دعوتها للعروبة سواء في فترة حكمه في الشام أو في العراق، ثم انتقل إلى مصر بعد تبنى النظام العسكري فيها لفكرة الوحدة أو القومية العربية كسبيل لمقاومة الاستعمار وترأسه معهد يشتغل بتخريج كوادر تدعو إلى هذا الاتجاه كما أراد له مؤسسوه، وكان المؤلف (ساطع الحصري) من أكثر المفكرين المناسبين لترأس هذا المعهد الذي يجمع طلابا من كافة الأقطار العربية لدعم هذا التيار.

*****

obeikan.com